الأستاذ : د. محمد بك

جامعة باجي مختار – عنابة –

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

المستوى : أولى ماستر

المقياس : العلاقات الجزائرية المغاربية والمشرقية

محاضرة الأسبوع الثالث شهر ماي 2020 م

العلاقات الاجتماعية الجزائرية المشرقية

ملاحظة : أتناول في هذه المحاضرة العلاقات الاجتماعية بين الجزائر ومصر، ولتنبيه كلمة مغربي تعني الجالية المغاربية بصفة عامة .

مناطق انتشار القبائل المغربية في ريف مصر:

نتيجة لعوامل الطرد والجذب جاءت بعض القبائل المغربية ، سواء أكانت من أصول بربرية أم من أصول عربية إلى مصر في فترات مختلفة سابقة للعصر العثماني ، وقد استمر مجيء القبائل المغربية في العصر العثماني كذلك ، وأتيحت لهذه القبائل فرصة الاستقرار في مناطق الريف المصري ، بينما آثر بعض هذه القبائل حياة التجوال والترحال بين أرجاء هذا الريف وقراه وعلى أطرافه.

– **القبائل المستقرة :** إن منطقة الشمال الغربي من الدلتا ، وبخاصة منطقة البحيرة كانت المنطقة الأولى لاستقرار الموجة الأولى من القبائل المغربية التي وفدت إلى مصر ، وهذا أمر طبيعي يتوافق ومنطق الأحداث حيث أن هذه المنطقة أقرب المناطق المصرية الى بلاد المغرب والمعبر الرئيسي بين مصر وبلدان المغرب العربي ، ولذا فإن قبائل مزانة وزناتة والهوارة ودنانة وبني يزان والرماحنة اتخذت من منطقة البحيرة والمناطق الممتدة غربي الإسكندرية وعلى أطرافها مستقرا لها في بادئ الأمر، ثم حدث تحرك بعض فروعها الى مناطق الدلتا الأخرى أو إلى الصعيد.إن القبائل المغربية التي وفدت إلى مصر في العصر العثماني مثل قبائل أبو كريم ، محارب ، ابن وافى ، ترهونة ، المغاربة ، أولاد علي آثرت الاستقرار في جوار القبائل التي سبقتها فاستقرت في معظم قرى البحيرة .

كما أن بعض القبائل انتشرت في مناطق أخرى حيث نجد قبائل سليم متواجدة في المنطقة الممتدة من الإسكندرية الى برقة غربا بينما انتشرت قبائل بني وهيب في المنطقة الممتدة من الإسكندرية إلى العقبة شرقا ، هذا إلى جانب وجود فروع لهذه القبائل في قرى الغربية ، والدقهلية ، والشرقية والقليوبية والمنوفية . كما أننا نجد انتشار فروع القبائل المغربية مثل الهوارة والعبابدة والهنادي وسليم وبني هلال في جميع مناطق الصعيد من أسوان حتى مشارف القاهرة .

– القبائل المتجولة : إن هذه القبائل الرعوية أو المتجولة قد اتخذت من معظم الأراضي المصرية مرتعا لها ، فهم لا يعترفون بحياة الاستقرار ولا يرغبون في امتلاك الأراضي ولا يدفعون ضرائب ، وهؤلاء العربان يؤثرون تغيير مناطق إقامتهم إذا ما بدت لهم منطقة أخرى أكثر تحقيقا لبغيتهم ، وأكثر مواتاة لمشروعاتهم القائمة على السلب والنهب والاغتصاب بالقوة ، وهم دائما على أهبة الاستعداد للهروب إلى مشارف الصحراء أو التوغل في أعماقها . وأشهر هؤلاء العربان المتجولون هم الذين ينتمون إلى قبائل أولاد علي ، ترهونة ، زناتة ، محارب ، كرايم وغيرهم وكانت مناطق تجولهم غير محددة ، بل إنها تشمل معظم أطراف الريف المصري.

المغاربة في مدن مصر:

إن استقرار أبناء المغرب في المدن المصرية المختلفة وبخاصة القاهرة والإسكندرية وتشكيلهم جالية لها كيانها في هذه المدن سابق على دخول العثمانيين مصر بفترة طويلة، وكانت تكّون ثقلا له وزنه ساعة دخول السلطان سليم الأول القاهرة . إن حجم هذه الجالية أخذ يزداد بصورة واضحة منذ بداية القرن 16م، وتسجل المصادر معلومات كافية عن التنظيمات المغربية في أهم الأحياء الحضرية في القاهرة مثل بولاق القاهرة ، مصر القديمة ، قناطر السباع ، الغورية ، الأزهر ، الحمزاوي ، الكعكيين ، البندقيين ، الأشرفية ، النحاسين ، المغربلين ، قوصون ، الجملون ، باب الشعرية ، باب النصر ، باب الحديد ، باب الخرق .

ونتيجة للنشاطات المتعددة التي مارسها أفراد الجالية المغربية في داخل القاهرة ، وامتداد تنظيماتهم إلى كل خطط هذه المدينة أصبحت كثير من الأحياء والشوارع تحمل أسماء مغربية ، أما عن الهيكل التنظيمي للجاليات المغربية داخل المدينة فإنه كان قائما على أساس طائفي ، فكل طائفة كانت تشتغل بعمل واحد تجارة أو حرفة ، ويختارون شيخا لهم متحدث باسمهم ومدافع عن حقوقهم أمام السلطات الحاكمة . وقد أصبحت تنظيمات الجالية المغربية قوة لا يستهان بها ولها دورها في توجيه سياسة النظام الإداري في المدينة ، ويرجع هذا إلى الثراء الضخم الذي أصبح عليه كثير من أفراد هذه الجالية وبخاصة فئة التجار وانتماء كثير من أفرادها انتماء عضويا إلى أوجاقات الحامية العثمانية للتمتع بامتيازاتها المادية والأدبية . ولم يكن الدور الذي لعبته الجالية المغربية في بنية مدينة الإسكندرية الذي يعتبر الثغر المصري الأول على البحر المتوسط ومدن الثغور الأخرى مثل رشيد ودمياط والسويس والقصير ، وكذلك في المدن الداخلية مثل المنصورة وقيلوب ومنوف والمنيا وأسيوط وجرجا بأقل أهمية من دورها الذي كان لها في مدينة القاهرة .

الجزائريون والحياة الاجتماعية في المدينة:

إن اشتغال أبناء الجالية الجزائرية الذين استقروا في المدن المصرية بالعمل التجاري والحرف المهنية الصناعية وحرف الخدمات وطلب العلم والاشتغال بالتدريس جعلهم على علاقة واسعة وقوية بمختلف طوائف المجتمع المصري آنذاك ، ويمكن أن نرصد حالات الاندماج الاجتماعي بين الجزائريين والمجتمع المصري في النواحي التالية :

1 – التزواج والتصاهر: لقد أثبتت المصادر أن أبناء الجالية الجزائرية لم يكونوا منغلقين اجتماعيا فبجانب علاقة أبناء الجالية القوية فيما بينهم ، فإنهم اندمجوا اجتماعيا مع فئات المجتمع المصري ، وأصبحت ظاهرة

التزاوج من مصريات وشاميات منتشرة وبصورة واسعة ، وكذلك تزويج بناتهم لمصريين وشاميين أصبحت شيئا عاديا ، فمثلا نجد السيد علي بن الشريف أحمد بن محمد بن سعيد المغربي البجاوي يتزوج بالحرمة زكية بنت عثمان عبد الله المصرية ، ونجد أن الحرمة عائشة المرأة بنت السيد محمد المغربي الجزيري تتزوج من عمر بن رمضان ديب المصري.ونتيجة للرفاه الاقتصادي الذي تمتع به بعض الجزائريين فإنهم اشتروا الجواري وأعتقوهن وتزوجوا بهن سواء أكانوا جواري بيضا أو سودا ، وبما أن الجزائريين عاشوا في معظم أحياء المدن المصرية ينتج عنه أن عملية التأثر والتأثير في العادات والتقاليد والأعراف بين هذه الأسر المتصاهرة كانت واسعة وعميقة . ومن الملاحظ أيضا أن بعض الأسر الغنية أبقت المصاهرة داخل نطاقها وبقي ذلك تقليدا لفترات طويلة . كذلك تم التزواج بين كثير من طلبة العلم والعلماء الجزائريين ومصريات بخاصة أولائك الذين استقروا بمصر واتخذوها وطنا ثانيا لهم ، فأحمد المقري بعد أن استقر به المقام في مصر 1619م تزوج بمصرية .

2- الاشتغال بالحرف المهنية والخدمات وأثره في انتشار العادات والتقاليد الجزائرية :

لقد اشتغلت الجالية الجزائرية بالحرف المهنية والصناعية وحرف الخدمات في معظم أحياء المدن المصرية التي عاشوا فيها ، وكانت هذه الحرف التي تمس حياة المجتمع بصورة واضحة مثل الطحانة والقصابة والقبانة والسمسرة والصيرفة والدولبة وعصر الزيوت وصناعة المنسوجات وغير ذلك من الحرف التي تحتاج دائما إلى الاحتكاك المستمر بين أفراد المجتمع والتعامل فيما بينهم وهذا ما حدث مع أبناء الجالية الجزائرية المشتغلين بهذه الحرف ، فقد توطدت علاقاتهم بفئات المجتمع المصري وتعاملوا معها بيعا وشراء وتأدية خدمات ، وأصبحت حوانيتهم ووكالتهم تتعامل مع أبناء المجتمع المصري ، وعن طريق هذه المعاملات أثروا في هذا المجتمع كما تأثروا به ، وانتشرت العادات والتقاليد الجزائرية نتيجة لهذا الاختلاط بصورة واضحة في مجتمع المدينة المصرية حتى انتشار الزي الجزائري أصبح شائعا بين كثير من فئات الشعب المصري ، وكذلك انتشرت الأطعمة الجزائرية في أحياء المدن المصرية ، وبصفة خاصة في مدينتي القاهرة والاسكندرية ، كما أن قطاعا كبيرا وبخاصة في مجتمع الاسكندرية تأثروا الى درجة كبيرة باللهجة الجزائرية التي لا تزال تأثيراتها واضحة حتى يومنا هذا ، وقد كانت عمليات التزواج التي سبقت لنا معالجتها أكثر ما تكون بين قطاع هؤلاء الحرفيين نتيجة لارتباطهم الشديد بغالبية المجتمع .

وليس هذا فقط بل إن تأثيرات المشتغلين بهذه الحرف نظرا لانتشارهم الواسع امتدت لتشمل قطاعات أخرى خارج مجتمع المدينة ، فامتدت الى المناطق المحيطة بهذه المدن ، وقد ظهر ذلك واضحا في الدلتا حيث انتشر كثير من أبناء الجزائر في معظم مدن الدلتا حيث تركوا تأثيراتهم الذي شمل أيضا أبناء الجاليات الأخرى التي كانت تعيش في المجتمع المصري ، مثل الشوام والسودانيين . ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا التأثير كان متبادلا فكما أثّر أبناء هذه الفئة في تلك النواحي ، تأثروا هم في بعض جوانبها بالعادات والتقاليد والأعراف المصرية وغيرها من الطوائف الأخرى ، وفي كثير من الأحيان نقلوها إلى بلادهم .

3 – فئة التجار ودورها في التأثير الاجتماعي :

لقد أصبحت فئة التجار تلعب دورا ضخما في الحياة الاقتصادية المصرية ، وتعددت مجالات استثماراتها لرؤوس أموالها ، وتشابكت مصالحها مع مصالح الطبقات العليا في المجتمع المصري وبخاصة مع الأمراء المماليك ورجال الإدارة وباشوات مصر وعلمائها ، وتفيض المصادر في تضخيم دور هؤلاء التجار والمكانة الاجتماعية التي أصبحوا فيها حتى كونوا فئة ذات تمايز اجتماعي واضح وبخاصة أولئك الذين ينتمون إلى أسر مغاربية مثل الشرايبي والمحروقي وحدق والكهن والسقاط ، وينعت أفراد هذه الأسر بألقاب وصفات مثل " عين أعيان الكرام " : فخر التجار المكرمين " تدل على علو المكانة الاجتماعية التي حصلوا عليها وتأثيرهم في المجتمع المصري.

كذلك حصلت فئة كبار التجار بالإسكندرية على نفس المكانة الاجتماعية المتمايزة وعن طريق هذه المكانة استطاعت أن تلعب دورها في التأثير الاجتماعي على بنية المجتمع المصري الاجتماعية ، نتيجة لاتساع دائرة علاقاتها الاجتماعية التي اشتملت كل الفئات من فئة الأمراء ورجال الإدارة إلى الفئة الفقيرة المعدمة ومد يد الإحسان لها حتى حظيت بتقدير الجميع .

4 – العلماء وطلبة العلم :

كان العلماء وطلبة العلم الجزائريين الذين أتوا للدراسة والتدريس بالأزهر والمدارس المصرية أحد القنوات المؤثرة في المجتمع المصري خلال العصر العثماني المتأثرة به ن فقد حاز العلماء منهم على مكانة علمية عالية جعلتهم قبلة فئات لمجتمع يؤمونهم ليفتونهم في مسائل دينهم وأحوالهم الشخصية ، ولينتفعوا بعلمهم ويأخذوا عنهم ، وأصبح لهؤلاء العلماء روادهم وطلابهم من المصريين الذين لا شك أنهم تأثروا بهم ونقلوا هذا التأثير إلى محيط أسرهم ، وقد تولى العلماء الجزائريين بعضا من المناصب المؤثرة منها نيابة القضاء وغيرها مما جعل أثرهم يبرز في محيط المجتمع المصري في القاهرة والإسكندرية وغيرها ، وكذلك كان تأثير الفقيه الجزائري وكاتب التمائم في مجتمع الريف المصري ، لا يقل حجما عما عليه حجم تأثير العلماء في مجتمع المدينة ، هذا فضلا عن العلماء الذين تولوا مشيخة رواق المغاربة ونظارة أوقافه وجمع ريعها أصبحوا أكثر احتكاكا بفئات الشعب التي كانت تنتفع بهذه الأوقاف ، وكان لهم أثرهم على هؤلاء المنتفعين ، ولم يجعل من هؤلاء العلماء من أنفسهم طبقة متميزة عن الشعب بل شاركوه همومه ومشاكله التي كان يعيشها واندمجوا معه على السراء والضراء ، فزاد تأثيرهم قوة بل أن هناك من العلماء الجزائريين الذين اتخذوا من مصر وطنا لهم عاشوا عيشة المجتمع المصري بكل مقوماته .

أما طلبة العلم فقد كان اختلاطهم بأساتذتهم وبزملائهم من المصريين له آثاره البعيدة عليهم فقد تأثروا بالعادات والتقاليد المصرية وأثروا فيها ، وخاصة أن بعض هؤلاء الطلاب طالت مدة اقامتهم بمصر ، ولم تعد اقامتهم قاصرة على طلب العلم ، بل اشتغلوا ببعض الحرف التي تدر عليهم بعض الربح كما رأينا ، هذا فضلا عن تكوينهم أسر داخل هذا المجتمع وزواج كثير منهم من مصريات ، مما جعلهم يتعبون بالحياة الاجتماعية المصرية بأوسع معانيها . وأصبح الكثير منهم يحترف القراءة على القبور وفي المساحد نظير أجر معين ، كما تولى بعضهم وظائف النظر على مثل هذه الأمور مما جعلهم أكثر ارتباطا بطوائف المجتمع المصري.

5 – المغاربة والحامية العثمانية :

كان لاوجاقات العثمانية منذ بداية العصر العثماني امتيازاتها المادية والأدبية الكبيرة في المجتمع المصري في المدينة والريف على السواء ، ومنذ القرن 17م بدأ الانتماء الى هذه الاوجاقات من بعض طوائف المجتمع المصري للتمتع بامتيازات هذه الأوجاقات ، وقد شاعت هذه العملية حينما بدأت عملية بيع تذاكر العلوفات تصبح شيئا معترفا به من قبل الادارة ، وقد استغلت فئة التجار هذه الفرصة وبدأت تشتري هذه التذاكر وتنسب نفسها إلى أوجاقات الحامية المختلفة ، كذلك استغل العربان الجزائريين في الريف فرصة الانتماء الى الحامية فادعواالانتماء الى بعض أوجاقاتها للتمتع بامتيازاتها على السكان .

6 – التأثير الاجتماعي عن طريف علاقات الانتاج :

رأينا كيف أن فئة كبيرة من التجار من التجار الجزائريين ومن المشتغلين بالحرف الصناعية ، استثمروا فائض رؤوس أموالهم في التزام الأراضي الزراعية ، وامتلاك العقارات وتشغيل بعض المصريين لانتاج بعض السلع لحسابهم الخاص ، وقيام علاقات انتاجية واسعة بين قطاعات كبيرة من الشعب المصري ، ومايدل على تأثير المغاربة القوي على المجتمع المصري أن كثيرا من أحياء وشوارع وحارات ودروب وأسواق ووكائل المدن الكبرى وبخاصة القاهرةوالاسكندرية ومدن الثغور الأخرى أصبحت تحمل اسم المغربي ، المغاربة .. وقد قدرت الادارة دور هذه الجالية في المجتمع المصري ، فلم تعد تصدر أمرا يخص حياة هذا المجتمع ومصيره الا بحضور أعيان المغاربة .

الجزائريون والحياة الاجتماعية في الريف المصري :

نقصد بهذا الدور ، دور العربان المغاربة (بني وافى ، أبو كرايم ، محارب...) على الحياة الاجتماعية في الريف المصري ، وقد كان العربان يتجولون في ربوع مصر شمالها وجنوبها ، وقد تميز دور هؤلاء العربان على الحياة الاجتماعية في الريف المصري في معظم جوانبه بالسلبية ، وكانت شاملة للعربان المتجولين وومعظم العربان المستقرين ، فقد جعل هؤلاء العربان من أنفسهم طبقة متميزة على أبناء البلاد من الفلاحين وتعالوا عليهم ، أما العربان المتجولون والذين كان يطلق عليهم عرب الخيش فقد أصبحوا مصدر رعب وارهاب للفلاحين ، ونهبوا وسلبوا مزروعاتهم وحيواناتهم ورغم ذلك كان الفلاحون يحترمونهم كسادة لهم .

ومع تمتع هؤلاء العربان بكل هذه الامتيازات التي فرضوها على الفلاحين ، فانهم لم يكونوا يشاركونهم لا في تطهير الترع ولا في اقامة الجسور ، أو غير ذلك من المشروعات العامة التي تسهل على الفلاحين عملهم ، اعتقادا منهم أنهم يقدمون للفلاحين حمايتهم نظير ما يقدمونه لهم من هبات وخدمات ، مع أن هذه الحماية في غالب الأحيان ضارة بالفلاحين. لكن دور العربان الذين احترفوا الزراعة كان ايجابيا في المناطق التي استقروا فيها ، حيث عمّ قرى هذه المناطق الأمن والاستقرار والرخاء الاقتصادي مثل منطقة مصر العليا التي عمها الرخاء بسبب تواجد عربان الهوارة .